المبحث الرابع

المحدثون والإعجاز

المطلب الأول: إعجاز القرآن، للرافعي (ت: ١٣٥٦هـ)

ولد الرافعي في عام ١٢٩٧هـ، أصله من طرابلس الشام، عاش في طنطا بمصر، وهو عالم بالأدب شاعر كاتب، له (ديوان شعر) في ثلاثة أجزاء، و(تاريخ أدب العرب) جزءان، و(تحت راية القرآن) و(أوراق الورد) وكتابه الخاص بالإعجاز وهو (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية)، كان أبرز من تصدّى لطه حسين في كلامه حول الشعر والجاهلي. توفي بطنطا عام (١٣٥٦هـ)[١].

ولقد كان للرافعي -رحمه الله- فضل السبق في الكلام على الإعجاز في القرن الرابع عشر على هذا النحو من البسط والتوسع في العرض بذكر مباحث متعلقة بالإعجاز فكان الإعجاز قسماً من أقسام الكتاب حيث يحتوي مباحث عديدة نحو: تاريخ القرآن، والقراءات، وآداب القرآن وغيرها. ورغم إن الإعجاز قد جاء مبحثاً في كتاب الرافعي إلا إنه أكبر مباحث الكتاب حجماً[٢].

وقد كان الرافعي -رحمه الله- منحة من منح الله لهذه الأمة في عصر كان الناس في أمسّ الحاجة إليه، فقد وهبه الله قلماً ذابّاً عن القرآن ولغته. ولقد كانت كتابته تتصف بالعمق في الأسلوب، وقوة في العرض، يزينها عاطفة صادقة وإحساس مرهف. كان يرقى مع قارئه في سلم البيان، ليصل به إلى السمو الأدبي[٣]، حيث يقول كلمته في السمو: «عابوا السمو الأدبي

---

(١) ينظر: الأعلام: ١٩٣/٧، وينظر: بلاغة القرآن في أدب الرافعي: ١٨٧.

(٢) ينظر: تاريخ آداب العرب: ٧٣/١.

(٣) ينظر: إعجاز القرآن: ٩٣-٩٤.

بأنَّه قليل، ولكنه الخير كله، وبأنَّه مخالف ولكن... الحق كذلك، وبأنَّه محيّر ولكن... الحسن كذلك، وبأنَّه كثير التكاليف، ولكن... الحرية كذلك.

كان الرافعي -رحمه الله- أديب، لم يقتصر أدبه على النثر وحده، بل كان كاتباً وشاعراً له طابعه المميز في الشعر، وأسلوبه الواضح في الكتابة، وكان أيضاً ناقداً له منهجه المستقل في نقده، ولم يخرج نقده عن الهدف العام الذي دار في إطاره أدبه وهو: الذود عن حمى الدين واللغة العربية، ولقد أفاد الأدب العربي ولغته، وانتفعت حقول الفكر والثقافة من جهوده في النقد إفادة غير محددة[1].

وكتاب الرافعي -رحمه الله- (إعجاز القرآن) نجده يحتوي على موضوعين مهمين هما: (١) إعجاز القرآن، (٢) البلاغة النبوية.

لقد بدأ الرافعي -رحمه الله- كتابه بكلمة رصينة عن القرآن وعن علومه وعن نزوله وجمعه وقراءاته وغير ذلك، فاستحلت ما يقارب نصف الكتاب، ثم تحدث عن معنى الإعجاز، ثم تحدث عن الإعجاز كما يراه فبيّن أنَّ القرآن الكريم معجز من جهات ثلاث:

١- من حيث تاريخه بين الكتب السماوية.

٢- من حيث آثاره، فلم يعرف في الدنيا كتاب، كان أثره ولا يزال مثل هذا الكتاب الكريم.

٣- من حيث حقائقه: وهي حقائق في مجالات متعددة، تعدد أنماط الحياة، فهي حقائق ليس فيها ثغرة يتسلل من خلالها زيغ أو زائغ. ويتحدث الرافعي عن أسلوب القرآن ونظمه وغرابة أوضاعه التركيبية، ويبيّن أنَّه لما كان الأسلوب، أسلوب كل كاتب إنَّما ينعكس عن مزاج صاحبه،

---

(١) ينظر: بلاغة القرآن: ٥٩.

وكان القرآن كلام الله تعالى، أدرك العرب لأول وهلة حينما سمعوه أنَّهم مهما أتوا من حظ في أفانين الأساليب نظمها ونثرها، سيظل أسلوب القرآن الكريم بعيداً عن متناول ألسنتهم[1].

ويقول الرافعي: «إنَّ القرآن معجز بالمعنى الذي يُفهم من لفظ الإعجاز على إطلاقه، حين ينفي الإمكان بالعجز عن غير الممكن، فهو -أي القرآن- لا تبلغ منه الفطرة الإنسانية مبلغاً، وليس إلى ذلك مأتى ولا جهة، وإنَّما هو أثر كغيره من الآثار الإلهية، يشاركها في إعجاز الصنعة وهيئة الوضع، وينفرد عنها بأنَّ له مادة من الألفاظ كأنَّها مفرغة إفراغاً من ذوب تلك المواد كلها»[2].

ويرى الرافعي أنَّ إعجاز القرآن في بلاغة النظم. حيث قسم النظم إلى الحروف والكلمات والجمل.

حيث يقول في الحروف: «إنَّ القيمة الفنية للحروف كامنة في كونها دالة على أصوات والأصوات وسيلة من وسائل التعبير، وهو يحمل رعشات الطرب، واضطرابات الفزع، وهمسات لا يفسرها غير سماعها، فأصوات الحروف إنَّما تنزل منزلة النبرات الموسيقية المرسلة في جملتها كيف اتفقت، فلابد لها مع ذلك من نوع في التركيب وجهة من التأليف حتى يمازج بعضها بعضاً، ويتألف منها شيء فتتداخل خواصها وتتجمع صفاتها ويتكون منها اللحن الموسيقي»[3].

أما قوله في الكلمات والحروف فنراه يتحدث عن الجمال التنسيقي في صف الحروف في الكلمات والذي يتجلى في جوانب ثلاثة:

---

(١) ينظر: بلاغة القرآن في أدب الرافعي: ١٤٥.

(٢) إعجاز القرآن: ١٥٦.

(٣) المصدر السابق: ٢١٣.

الأولى: دلالة الكلمة الموضعية الذي سماه (صوت النفس) أي: المناسبة بين الكلمة ومدلولها.

الثاني: الدلالة العقلية للكلمات في الجملة والذي سماه (صوت العقل) وهي دلالة الكلمة البيانية.

الثالث: تفاوت الجمل في دقة التصوير والإبداع، والذي سماه (صوت الحسّ) وهو أبلغ الثلاث.

فيقول الرافعي: «إنَّ القرآن قد حاز القدر المعجز من هذا الجانب بل هو روح الإعجاز في القرآن الكريم فالقرآن يبادرك الروعة في كل جزء منه، كما تبادرك الحياة في كل حركة للجسم الحي»[1].

ومن ناحية الجمل وكلماتها فقد تحدّث الرافعي عن التنسيق في انتظام الكلمات في الجملة، والتعابير تتفاوت في الفصاحة والبلاغة والجمال، بمقدار التنسيق الموجود في الجمل التي تتألف فيها... وأسلوب القرآن بلغ في هذا التنسيق حد الإعجاز، وإنما اطرد ذلك للقرآن من جهة تركيبه الذي انتظم أسباب الإعجاز، من الصوت في الحرف إلى الحرف في الكلمة إلى الكلمة في الجملة، حتى يكون الأمر مقدّراً على تركيب الحواس النفسية في الإنسان تقديراً يطابق وضعها وقواها وتصرفها[2].

ولهذا يقول الرافعي: إنَّ القرآن نزل بتلك المعاني، ليخرج للأمة من كل معنى علماً برأسه، ثم يعمل الزمن عمله فتخرج الأمة من كل علم فروعاً ومن كل فرع فنوناً، إلى الوجه الذي انتهت إليه العلوم في الحضارة الإسلامية،

---

(١) إعجاز القرآن: ٢٢١، وما بعدها بتصرف.

(٢) ينظر: المصدر السابق: ٢٣٧.

وكان سبباً في هذه النشأة الحديثة، من بعد أن استدار الزمان، وذهبت الدنيا، وأنشأ الله القرون والأجيال لتبلغ هذه الحادثة أجلها ويتناهى بها القضاء[1].

ويرى الرافعي أنَّ القرآن معجز بالمعنى الذي يُفهم من لفظ الإعجاز على إطلاقه، حيث ينفي الإمكان بالعجز عن غير الممكن، فهو أمر لا تبلغ منه الفطرة الإنسانية مبلغاً وليس إلى ذلك مأتى ولا جهة، وإنَّما هو أثر كغيره من الآثار الإلهية، يشاركها في إعجاز الصنعة وهيئة الوضع، وينفرد عنها بأنَّ له مادة من الألفاظ كأنَّها مفرغة إفراغاً من ذوب تلك المواد كلها. وما يظنه إلا الصورة الروحية للإنسان، إذا كان الإنسان في تركيبه هو الصورة الروحية للعالم كله. فالقرآن معجز في تاريخه دون سائر الكتب، ومعجز في أثره الإنساني، ومعجز في حقائقه، وهذه وجوه عامة لا تخالف الفطرة الإنسانية في شيء، فهي باقية ما بقيت[2].

ويقول أيضاً: «ولو تدبرت ألفاظ القرآن في نظمها لرأيت حركتها الصرفية واللغوية تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة، فيهيئ بعضها لبعض، ويساند بعضها بعضاً، ولن تجدها إلاّ مؤتلفة مع أصوات الحروف، مساوقة لها في النظم الموسيقي، حتى إنَّ الحركة ربما كانت ثقيلة لسبب من أسباب الثقل أيّاً كان، فلا تعذب ولا تساغ وربما كانت أوكس النصيبين في حظ الكلام من الحروف والحركة، فإذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأناً عجيباً، ورأيت أصوات الأحرف والحركات التي قبلها قد امتهدت لها طريقاً في اللسان واكتنفتها بضروب من

---

(١) ينظر: المصدر السابق: ١١٩.

(٢) ينظر: إعجاز القرآن: ١٥٦.

النغم الموسيقي، حتى إذا خرجت فيه كانت أعذب شيء وأورقه، وجاءت متمكنة في موضعها وكانت لها الموضع أولى الحركات بالخفة والروعة»[1].

ونلاحظ أن وجه الإعجاز عند الرافعي يتلخص في اعتماده على إنَّ عمدة ذلك هو الحروف وأصواتها، ثم الحركة الصرفية واللغوية للألفاظ القرآنية المشتملة على تلك الحروف. فوجه الإعجاز عنده: هو بلاغة النظم[2].

المطلب الثاني: النبا العظيم، للدكتور محمد عبد الله دراز ولد سنة ١٨٩٤م و(ت: ١٩٥٨م)

لقد ألّف الدكتور محمد عبد الله دراز كتابه (النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن) وهو من أهم الكتب العلمية في إعجاز القرآن الذي ألّفه سنة ١٩٣٣م. والذي قسم فيه الكتاب إلى قسمين:

الأول: تحديد القرآن، ويقصد بالتحديد تعريف القرآن والفرق بينه وبين الأحاديث النبوية والقدسية[3].

ثانياً: بيان مصدر القرآن وإثبات أنه من عند الله بلفظه ومعناه، وقد قسمه إلى مراحل:

المرحلة الأولى: بيان أن القرآن لا يمكن أن يكون إيحاءً ذاتياً من الرسول الكريم -عليه الصلاة والسلام-.

المرحلة الثانية: ناقش الذين زعموا أن الرسول أخذ القرآن من مُعلم. وأبطل هذا التصور.

---

(١) المصدر السابق: ٢٣٧.

(٢) ينظر: نظرات في الإعجاز: ٩٤-٩٥.

(٣) النبأ العظيم: ١٢-١٧، وينظر: البيان في إعجاز القرآن: ١٢٤.

المرحلة الثالثة: ظروف الوحي وملابساته.

المرحلة الرابعة: البحث في جوهر القرآن نفسه وحقيقة مصدره.

ويرى الدكتور دراز: أنَّ الإعجاز القرآني يكمن في ثلاثة أوجه:

١- **الإعجاز اللغوي**: ويعده أظهر وجوه الإعجاز؛ لأنَّه هو الذي وقع به التحدي والقرآن عنده معجزة لغوية خالدة.

٢- **الإعجاز العلمي**: وهو يتحدث عن إشارات علمية في الآيات القرآنية.

٣- **الإعجاز التشريعي الإصلاحي الاجتماعي**[(١)].

وقد فصّل القول في الإعجاز اللغوي؛ لأنَّه هو الذي وقع من جهته التحدّي بالقرآن، ووضّح أن القرآن معجزة لغوية، وأشار إلى نظريتين للقشرة السطحية للّفظ القرآني؛ وهما[(٢)]:

١- **الناحية الأولى**: الجمال التوقيعي في توزيع حركاته وسكناته ومدّاته وغنّاته؛ إذ يقول: «دع القارئ المجوّد يقرأ القرآن يرتله حق ترتيله، نازلاً بنفسه على هدي القرآن، وليس نازلاً بالقرآن على هدي نفسه، ثم انتبذ منه مكاناً قصياً لا تسمع فيه جرس حروفه، ولكن تسمع حركاتها وسكناتها، ومدّاتها وغنّاتها واتصالاتها وسكتاتها، ثم ألقِ سمعك إلى هذه المجموعة الصوتية، وقد جُرِّدت تجريداً، وأُرسلت ساذجة في الهواء، فستجد نفسك منها بإزاء لحن غريب عجيب لا تجده في كلام آخر لو

---

(١) ينظر: الإعجاز في نص الخطاب: ٤١١، ونظرات في الإعجاز: ٩٥، ومباحث في إعجاز القرآن: ١٠٣-١٠٤.

(٢) ينظر: معترك الأقران: ٦٩٠، الإعجاز البياني تاريخ ومعالم: ص١٣٠٥.

جُرّد هذا التجريد، وجُوِّد هذا التجويد»[1].

٢- **والناحية الثانية:** الجمال التنسيقي في رصف الحروف وتأليفها من مجموعات مؤتلفة مختلفة. فيقول: «فإذا ما اقتربت بآذانك قليلاً قليلاً فطرقت سمعك جواهر حروفه خارجة من مخارجها الصحيحة، فاجأتك منه لذة أخرى في نظم تلك الحروف ورصفها وترتيب أوضاعها فيما بينها. هذا ينقر، وذلك يصفر، وثالث يهمس، ورابع يجهر، وآخر يترلق عليه النفس وآخر يحتبس عنده النفس وهلم جرّا»[2].

ويقول دراز: إنَّ القرآن في دعوته إلى الإيمان والفضيلة لا يسوق الدروس من التعاليم الدينية والأحداث الجارية وحدها، وإنَّما يستخدم في هذا الشأن الحقائق الكونية الدائمة، ويدعو عقولنا إلى تأمل قوانينها الثابتة – لا لغرض دراستها وفهمها في ذاتها فحسب – وإنَّما لأنَّها تذكّر بالخالق الحكيم القدير. ونلاحظ أنَّ هذه الحقائق التي يقدمها تتفق مع آخر ما توصل إليه العلم الحديث[3]. مثال ذلك: تكوين المطر، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾[4] ودائرية السماء والأرض، قال تعالى: ﴿وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴾[5]

---

(١) النبأ العظيم: ١٠١-١٠٢.

(٢) النبأ العظيم: ١٠٤، وينظر: البيان: ١٢٦.

(٣) ينظر: النبأ العظيم: ١٠٥، وينظر: من خلق القرآن: ٧٢.

(٤) سورة الروم، الآية: ٤٨.

(٥) سورة الزمر، الآية: ٥.

ومسيرة الشمس إلى نقطة معلومة، قال تعالى: ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ﴾[1] وثنائية النباتات والمخلوقات الأخرى، وهي حقيقة علمية كان يجهلها عصر الرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[2] والتلقيح بواسطة الرياح، قال تعالى: ﴿ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾[3] إلى آخره[4].

ثم يتكلم الدكتور دراز عن خصائص القرآن البيانية ويرتبها على أربعة مراتب وهي:

١- القرآن في قطعة قطعة منه[5]:

ووضّح أن أسلوب القرآن: «تلتقي عنده نهايات الفضيلة كلها، على تباعد ما بين أطرافها»[6]، ويمضي في بيان نهايات الفضيلة البيانية، والتي تتمثل في: (أ) و(ب) العضد في اللفظ، والوفاء بحق المعنى.

(جـ) و(د) خطاب العامة، وخطاب الخاصة.

(هـ) و(و) إقناع العقل، وإمتاع العاطفة.

(ز) و(ح) البيان، والإجمال.

---

(١) سورة يس، الآية: ٣٨.

(٢) سورة يس، الآية:٣٦.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٢٢.

(٤) ينظر: مدخل إلى القرآن: ١٧٦.

(٥) ينظر: النبأ العظيم: ١٠٧، وينظر: إعجاز القرآن: ١٠٥.

(٦) النبأ العظيم: ١٠٨.

٢- القرآن في سورة منه:

وتحدّث فيه عن الوحدات التي تتمثل في سورة كاملة، ثم نظر إليها ككل يُمثِّل في مجموعه وحدة مترابطة، وثيقة العرى، وطبق نظرته على سورة البقرة؛ حيث عرضها عرضاً واحداً، رسم له خط سيرها إلى غايتها، وأبرز وحدة نظامها المعنويّ في جملتها؛ لكي ترى كيف وقعت كل حلقة موقعها من تلك السلسلة العظمى[١].

٣- القرآن فيما بين بعض السورة وبعض.

٤- القرآن في جملته[٢].

المطلب الثالث: إعجاز القرآن، سيد قطب

هو سيد بن قطب بن إبراهيم، مفكر إسلامي مصري ولد في قرية (موشا) من قرى محافظة أسيوط سنة ١٩٠٦م لأب ميسور الحال، وكان أبوه محباً للعلم، فقد سارع إلى إلحاق ابنه بالتعليم، فأظهر الابن تفوّقاً واضحاً على الرغم من صغر سنة حيث حفظ القرآن وهو في العاشرة من عمره، سافر إلى القاهرة والتحق بدار العلوم وتخرّج فيها. اتصل بالأديب (عباس محمود العقاد) في بداية تحصيله العلمي، وتأثّر به، ثم التزم مع الاتجاه الإسلامي، وأعجب بآراء (العقاد) الفكرية، كما تأثّر بأفكار الشيخ (محمد رشيد رضا) من الناحية الدينية، وأشدّ ما أثّر في نفسه مقتل الإمام (حسن البنا) والضجيج والفرحة اللذان أحدثهما خبر وفاته لدى الغرب، فالتحق بجماعة الإخوان المسلمين، وبقي فيها حتى جرى اعتقاله عام ١٩٥٤م بقي في السجن حتى عام

---

(١) النبأ العظيم: ١٥٨، وينظر: البيان: ١٢٦.

(٢) ينظر: النبأ العظيم: ١١٠، وينظر: الإعجاز البياني تاريخ ومعالم: ٣٠٦.

١٩٦٥م. خرج بعدها ليمضي ستة أشهر خارج جدران السجن ليعود اعتقاله من جديد حيث تنتهي رحلته مع السجن بالإعدام ليموت شهيداً (رحمه الله) عام (١٩٦٦م)[١]. بلغت مؤلفاته (رحمه الله) حوالي العشرين، ولعل من أنفسها كتابه القيّم في التفسير المسمى: (في ظلال القرآن)[٢]. لسيد قطب – رحمه الله – مؤلفات عديدة في الأدب والنقد، وعن الإسلام عامة، إلا إنَّ الكتب التي تحدد آخر مراحل تطور فكره هي: (هذا الدين) و(المستقبل لهذا الدين) و(في ظلال القرآن) و(معالم في الطريق)[٣]. ولم يفرد سيد قطب كتاباً خاصاً يتضمن وجوه إعجاز القرآن الكريم لديه، غير إنَّه وضع نظراته وآراءه حول ذلك في كتابيه: (التصوير الفني) و(في ظلال القرآن) فقد وضع في كتابه (التصوير الفني) نظرية التصوير الفني في القرآن الكريم، حيث يقول د. صلاح الخالدي: «هي نظرية أصلية رائدة، تفرّد بها سيد قطب، وقد اعترف له العلماء والأدباء والنقاد والمعاصرون بهذه الريادة، وسجّلوا له هذه الأولية، في اكتشاف وتوضيح هذه النظرية البيانية القرآنية»[٤].

ويرى سيد قطب «أن التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، فهو يعبّر بالصورة المحسّة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور. ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها

---

(١) ينظر: الأعلام: ٢١٣/٥، وسيد قطب الشهيد الحي: ٣١، وينظر: أسلوب القرآن: ٤٢، ومدخل في ظلال القرآن: ١٩.

(٢) راجع في الترجمة كتاب: (سيد قطب- خلاصة حياته، منهجه في الحركة، النقد الموجه إليه).

(٣) ينظر: مباحث في إعجاز القرآن: ١٠٦.

(٤) ينظر: إعجاز القرآن: ٣٣٨.

الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة»[1]. ثم يتوسع في معنى التصوير؛ فهو تصوير باللون، وتصوير بالحركة وبالإيقاع، وكثيراً ما يشترك الوصف، والحوار، وجرس الكلمات، ونغم العبارات، في إبراز صورة من الصور، تتملأها العين والأذن، والحس والخيال، والفكر والوجدان[2].

ونلاحظ أنَّ الجانب الذي أبرزه سيد قطب في كتاباته هو جانب التصوير الفني في القرآن وارتبط اسم التصوير الفني في القرآن باسم سيد قطب، وهو أوائل من أبرز الجوانب الجمالية الفنية في أسلوب القرآن الكريم[3].

إنَّ خصائص التصوير الفني في القرآن عند سيد قطب تتمثل بما يأتي:

١- **التخييل الحسي**: هي حركة حيّة مما تنبض به الحياة الظاهرة للعيان أو الحياة المضمرة في الوجدان، ومن ألوانه ما يمكن أن نسميه «التّشخيص»؛ ويتمثل في خلع الحياة على المواد الجامدة، والظواهر الطبيعية، والانفعالات الوجدانية. ومن ألوانه ما يتمثل في الحركة المتخيلة التي تلقيها في النفس بعض التعبيرات، ومنه ما يتمثل في الحركة الممنوحة لما من شأنه السكون[4].

٢- **التجسيم الفني**: هو تجسيم المعنويات المجردة، وإبرازها أجساماً أو محسوسات على العموم، ومنه تجسيم المعنويات، لا على وجه التشبيه

---

(١) التصوير الفني: ٣٤.

(٢) المصدر السابق: ٣٥.

(٣) ينظر: البيان: ١٨٢، والمنهج البياني في تفسير القرآن في العصر الحديث: ١٦٧.

(٤) ينظر: مدخل الى ظلال القرآن: ص ١٩٤، والإعجاز البياني تاريخ ومعالم: ١٣٠٣-١٣٠٤.

والتمثيل، بل على وجه التحيير والتحويل وكثيراً ما يجتمع التخييل والتجسيم في المثال الواحد من القرآن؛ فيصوّر المعنوي المجرد جسماً محسوساً، ويُخيّل حركة لهذا الجسم أو حوله من إشعاع التعبير[1].

٣- **التناسق الفني**: وهو عبارة عن ألوان ودرجات عند سيد قطب:

- منها ذلك الإيقاع الموسيقي الناشئ من تخيّر الألفاظ ونظمها في نسق خاص.

- ومنها التسلسل المعنوي بين الأغراض في سياق الآيات.

- ومنها التنسيق في تأليف العبارات، بتخير الألفاظ، ثم نظمها في نسق خاص.

- ومنها النكت البلاغية التي تنبّه لها الكثيرون.

- وأعلى أنواع التناسق هو هذا التناسق النفسي بين الخطوات المتدرجة في بعض النصوص أو الخطوات النفسية التي تصاحبها[2].

ويقول سيد قطب عن التصوير الفني في القرآن: «وهكذا تنكشف للناظر في القرآن آفاق وراء آفاق، من التناسق والاتساق: فمن نظم فصيح. إلى سرد عذب. إلى معنى مترابط. إلى نسق متسلسل. إلى لفظ معبّر. إلى تعبير مصوّر. إلى تخييل مجسّم. إلى موسيقى منغّمة. إلى اتساق في الأجزاء. إلى توافق في الموسيقى. إلى تفنن في الإخراج. وبهذا كله يتم الإبداع، ويتحقق الإعجاز»[3].

---

(١) ينظر: التصوير الفني: ٦٣، و٦٨-٧٢.

(٢) المصدر السابق: ٧٤-٧٥، وينظر: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر الهجري: ٩٨٦/٣.

(٣) التصوير الفني: ١٨٨.

وهكذا يرى سيد قطب أن التصوير الفني في القرآن هو مظهر من مظاهر الإعجاز البلاغي القرآني[1].

ويقسِّم مراحل تذوق الجمال القرآني إلى ثلاث مراحل هي:

١- **المرحلة الأولى**: مرحلة التذوق الفطري: لقد تذوّق العرب بحاستهم الفنية جمال القرآن الكريم الفني الساحر وأحسّوا تأثيره المباشر على قلوبهم، والكافرون الذين قالوا عنه: إنَّه شعر وإنَّه سحر، أدركوا إعجازه البياني الرفيع، وتذوقوا جماله الفني، وإذا نظرنا في الروايات التي سجّلت تأثير القرآن على المؤمنين والكافرين. فمثلاً عمر بن الخطاب يقول عن القرآن حين سمعه: «ما أحسن هذا الكلام وأكرمه!» ويقول عن تأثير القرآن في نفسه: «فلما سمعت القرآن رقّ له قلبي، فبكيت ودخلني الإسلام»[2]. وزعماء قريش يجدون شيئاً خفياً يسيّرهم كل ليلة ليستمعوا قراءة رسول الله ﷺ ولا يستطيعون الامتناع عن السير إليه مع تعاهدهم عليه ولا يملكون مخالفة هذا الدافع الخفي[3]. والتذوق الفطري الذي قام به الصحابة حيث لم يعللوا ما كانوا يجدونه في أثر القرآن عليهم وتأثيره فيهم[4].

٢- **المرحلة الثانية**: مرحلة إدراك مواضع الجمال المتفرقة: بدأت هذه المرحلة في منتصف القرن الثاني للهجرة عندما أقبل العلماء على القرآن من مفسرين وأدباء ومتكلمين. حيث نظروا في الآية كوحدة منفصلة، واستخرجوا منها

---

(١) ينظر: الإعجاز البياني تاريخ ومعالم: ١٣٠٤-١٣٠٥، والبيان: ١٩٠.

(٢) السيرة النبوية: ١/٣٧٢.

(٣) ينظر: المصدر السابق: ١/٣٧٧، والتصوير الفني: ٢٣.

(٤) ينظر: الإعجاز في نص الخطاب: ٤١٢، والمنهج البياني في تفسير القرآن في العصر الحديث: ص ٢٧.

مباحث في اللغة والأدب والبلاغة والأصول والفقه والعقيدة، وألّفوا مؤلفات في التفسير وفي علوم القرآن ضمنت مباحث متنوعة مثل قصص القرآن وبديع القرآن وتشبيهات القرآن ومعاني وإعجاز القرآن[1].

٣- **المرحلة الثالثة**: مرحلة إدراك الخصائص العامة: لقد ظهرت هذه المرحلة في العصر الحديث حيث بدأت الكتابة في الخصائص العامة للجمال الفني، باكتشاف القاعدة العامة والطريقة الموحدة في التعبير القرآني. تناول سيد قطب جانباً هاماً من القواعد الأساسية في أسلوب القرآن في كتابه (التصوير الفني) فكان رائداً من رواد هذه المرحلة في إبراز قاعدة أساسية عامة من الأساليب البيانية للقرآن[2]. حيث يقول سيد قطب: «إنَّ حقيقة جديدة تبرز لي، إنَّ الصور في القرآن ليست جزءاً منه يختلف عن سائره، إنَّ التصوير هو قاعدة التعبير في هذا الكتاب الجميل، القاعدة الأساسية المتبعة في جميع الأغراض عدا غرض التشريع بطبيعة الحال، فليس البحث إذن عن صور تجمع وترتب، ولكن عن قاعدة تكشف وتبرز، ذلك توفيق لم أكن أتطلّع إليه، حتى التقيت به»[3].

❑ أمثلة على نظرية سيد قطب في التصوير الفني:

١- قوله تعالى: ﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾[4] حيث يقول: «فهي مخلوق

(١) ينظر: الإعجاز في نص: ٤١٢، ومباحث في إعجاز: ١٠٧-١٠٨.

(٢) ينظر: نظرية التصوير الفني عند سيد قطب: ١٢١.

(٣) التصوير الفني: ٨.

(٤) سورة الملك، الآيتان: ٧-٨.

حي لها صفات الأحياء من البشر فهاهي تكظم غيظها فتكاد تميز من الغيظ وتتمزق منه فترتفع أنفاسها من كظمها له فتفور ويسمع السامعون لها شهيقاً مرعباً فظيعاً»[1].

٢- وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾[2] حيث يقول: «تحوّلت أعمالهم المعنوية هنا إلى سراب مجسم بقيعةٍ يراه الرائي ماء».

٣- وقوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ ﴾[3] حيث يقول: «الولاية لغير الله -وهي أمر معنوي مجرد- صارت هنا صورة منفّرة محقّرة محسوسة مجسمة، بيت عنكبوت ضئيل هزيل واهن».

وبهذه الدراسات القيّمة يكون سيد قطب قد أضاف بعداً جديداً إلى مفهوم إعجاز النظم القرآني من الناحية البيانية[4].

❑ رأي سيد قطب في الإعجاز:

يرى سيد قطب أنَّ الإعجاز في كل آيات القرآن الكريم وفي الآيات الأولى التي خلت من العلوم والتشريعات، ويرى أنَّ الإعجاز في بيان القرآن

---

(١) في ظلال القرآن: ٦/٣٦٣٤ باختصار.

(٢) سورة النور، الآية: ٣٩.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٤١.

(٤) ينظر: نظرية التصوير الفني عند سيد قطب: ١٤٨.

وأسلوبه ونسقه البياني وتصويره الفني[1]، ويرى أنَّ الإعجاز في القرآن قائماً على الإبداع في العرض والجمال في التنسيق، والقوة في الأداء والجمال في التصوير، ويرى أيضاً أن من مظاهر الإعجاز:

أ. المشاهد القرآنية: أنَّها مشاهد حيّة نابضة تكاد تكون ناطقة حيث يقول: «إنَّها مشاهد حيّة منتزعة من عامل الأحياء، لا ألوان مجردة، ولا خطوط جامدة، مشاهد تقاس فيها الأبعاد والمسافات بالمشاعر والوجدانات، والخواطر والخلجات، وترسم المواقف وهي تتفاعل في نفوس آدمية حيّة، أو في شخوص من الطبيعة تخلع عليها الحياة»[2].

ب. أن مثل هذه المشاهد حاضرة تراها العين وتحسّها النفس يقول: «إنها حاضرة اليوم تراها العين، وتحسّها النفس، والفارق السحيق بين العاملين فارق قريب، بل لا فارق هناك في بعض الأحيان، بل ربما كانت الأخرى هي الحاضرة وكانت الدنيا ماضياً بعيداً يتذكره المتذكرون.

ونرى أن سيد قطب مرة يبدأ في قصة تقع في الدنيا، ثم يتابع الحديث، فإذا نحن في الآخرة: هذا فرعون يؤمّ قومه في الحياة الدنيا، ثم يستمر الشوط حتى يؤمّهم إلى النار، قال تعالى إخباراً عنه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾[3].

---

(١) ينظر: الإعجاز في نص الخطاب: ٤١٢.

(٢) مشاهد القيامة: ٤٣، وينظر: الفاصلة في القرآن: ٦٨.

(٣) سورة هود، الآيات: ٩٦-٩٨.

ومرة أخرى يزاوج بين مشاهد الدنيا ومشاهد الآخرة، ويسوقهما سوقاً واحداً كأنما هما حاضران في الزمان يتبادلان التقديم والتأخير، قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾[1].

ومرة يتحدث أيضاً عن الدنيا كأنها ماضٍ كان، وعن الآخرة كأنها الحاضر الآن، قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2].

وبهذا تلتقي هذه الألوان عند سمة واحدة وهي استحضار المشهد وإحياؤه، كأنما هو مشهود محسوس، وذلك بلا ريب أعظم تأثيراً في النفوس.

ج. سمة التناسق والترابط بين مختلف الجزئيات في المشهد مع الجرس في الألفاظ والاتساق في السياق[3]... يقول سيد قطب: «وهو تناسق يتجلى في جزئيات المشهد، فتبدو هذه الجزئيات منسقة بين بعضها البعض لوناً من

---

(١) سورة المرسلات، الآيات: ٨-٢٤.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٧١.

(٣) ينظر: أسلوب القرآن: ٤٤.

التماثل أو التشابه أو التقابل، ولكنها من جو واحد لا نشوز فيه ولا مفارقات، ويتجلى ثانية في جرس الألفاظ ليدل هذا الجرس على صورة معناه في بعض الأحيان، وليؤلف مع بقية الألفاظ إيقاعاً يناسب جو المشهد في جميع الأحيان. فإذا الموسيقى المصاحبة للمشهد تكمل جوّه، وتناسب أحاسيسه وتشترك مع الألفاظ في تصوير الغرض العام. ويتجلى ثالثةً في اتساق المشهد كله بألفاظه ومعانيه وجرسه وإيقاعه مع السياق الذي يعرض فيه، سواء جاء تعقيباً، أو مقدمة لبرهان، أو تأكيداً لقضية أو تثبيتاً لإيمان ومشاهد القيامة في القرآن كلها مسوقة لأداء الغرض الديني، ذلك الغرض الأول للقرآن. ولكنها تتصل بالوجدان الديني عن طريق الوجدان الفني...»[1].

ويرى سيد قطب: أنَّ من نواحي الإعجاز القرآني قضية التكرار في أكثر قصصه، حيث يقول: «لقد كان أول أثر لهذا الخضوع أن ترد القصة الواحدة -في معظم الحالات- مكررة في مواضع شتى، ولكن هذا التكرار لا يتناول القصة كلها -غالباً- إنَّما هو تكرار لبعض حلقاتها، ومعظمه إشارات سريعة لوضع العبرة فيها، أما جسم القصة كله فلا يكرر إلا نادراً، ولمناسبات خاصة في السياق.

ثم يقول: وفي كل تكرار صورة تختلف اختلافاً يسيراً أو كبيراً، وتنفي وهم التكرار بلا قصد إلى التكرار. وإن يكن للتكرار غرضه في صدد الدعوة، ولكنه مع هذا يسير مع الجمال الفني بالتنويع الدقيق الملحوظ...»[2].

كما ويرى الإعجاز في أساليب الأداء، وفي المنهج والدساتير التي حواها

---

(١) مشاهد القيامة: ٤٧.

(٢) التصوير الفني: ١٣٥.

هذا السفير الخالد، والتي شملت الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وتنظيم شؤون الحياة[1].

❑ الجانب التطبيقي في دراسة سيد قطب للإعجاز البياني في القرآن الكريم:

يتناول سيد قطب جوانب الجمال والإعجاز في السورة القرآنية ففي قوله تعالى: ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ ... فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾[2].

ونحن أمام مشهد[3] من المشاهد المطوّلة المتعددة الجوانب، المتنوعة الأساليب، المزدحمة بالمناظر الحيّة المتحركة، والحركات المتتابعة، يلتقي فيها الوصف بالحوار، فتسير على نسق الحكاية فترة، ثم تنتقل إلى نسق الحوار أخرى، ويتخلل سير الحوادث والمناظر تعليقات على كل منها، هي أشبه شيء بتعليق المعلّقين في ساحات الاستعراض على ما يقع فيها، ويستحق الالتفات الخاص، وبذلك كله يستكمل المشهد كل سمات الحياة، وقد جاء هذا الاستعراض طويلاً رداً على جماعة يقولون: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾، وكان الرد: نعم: ﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴾[4].

---

(١) ينظر: أسلوب القرآن: ٤٦-٤٧، والإعجاز التأثيري: ٣٠.

(٢) سورة الصافات، الآيات: ٥٠-٧٠.

(٣) ينظر: مشاهد القيامة: ١٥٥.

(٤) سورة الصافات، الآيات: ١٦-١٨.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾[1] وبهذا السؤال والجواب ينفتح المجال للخيال لتصوّر المشهد من وراء الحوار، وتخيّل الصورة من وراء الظلال، هذه هي الأجسام تغذق إلى جهنم، وقد فتحت أفواهها، حتى إذا توالى القذف وتكدّس، قيل لها: هل امتلأت؟ وقد نالت ما يحقق لها الامتلاء، ولكنها قد التهمت ما ألقي فيها التهاماً، وإنَّها لتنحرف وتتلمظ إلى وقود جديد (هل من مزيد؟)... وحينما تشهد الجموع هذا المنظر الرهيب، يكون على الجانب الآخر، الجنة مقرّبة مهيّأة للمتقين ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾، وهم يلقون التكريم الأدبي بجانب النعيم الحسي فيسمعون من الملأ الأعلى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[2].

إنَّه لمشهد رهيب مهيب، فيه الصورة، وفيه الحركة، والمشاهد تتابع محسوسة مجسّمة، والحوار يزيدها حياة وحرارة، ويمتد الحوار إلى جهنم، ليتم التناسق في التعبير والتصوير من جميع الأطراف. وإنَّه لمشهد مؤثّر في الوجدان، مثير للمشاعر والخيال، يؤدي غرضه الديني في يسر، ثم ينطلق إلى عالم الفن الطليق، لا تحدّه قيود الغرض المحدود، فلغة الجمال الفني تستطيع أن تخاطب الوجدان الديني، ولا تعارض بينهما في تصوير القرآن[3].

---

(١) سورة ق، الآية: ٣٠.

(٢) سورة ق، الآيات: ٣٢-٣٥.

(٣) ينظر: مشاهد القيامة: ٩١.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾[1] حيث تحوّلت أعمالهم المعنوية هنا إلى سراب مجسّم بقيعةٍ يراه الرائي ماء.

المطلب الرابع: إعجاز القرآن، محمد متولي الشعراوي

هو الشيخ محمد متولي الشعراوي. أحد العلماء الأفذاذ الذين نجموا بمصر في القرن الرابع عشر ولد سنة ١٩١١م بقرية (وقادوس) من محافظة الدقهلية، وهذه القرية تعد الآن جزءاً من مدينة (ميت غمر) من الناحية الشرقية، درس في الأزهر وتخرّج من كلية اللغة العربية ١٩٤٦م. عمل مدرساً بالأزهر، ثم أعير إلى جامعة أم القرى بمكة، ظل يتنقل في مختلف المناصب طيلة حياته حتى أُسندت إليه وزارة الأوقاف، فعمل بها وزيراً في مصر مدة وجيزة، ثم تفرّغ للتدريس وإلقاء المحاضرات والدعوة إلى الله[2].

❑ رأي الشيخ الشعراوي في الإعجاز:

يرى الشيخ أنَّ الإعجاز يكون في القرآن من حيث تمزيقه لحواجز الغيب الثلاث: حاجز الماضي، والمكان، وحاجز المستقبل. أما حاجز الماضي فهو يتضمن إخباره عن أمور حدثت في الماضي، فهي ضمن المغيبات؛ لأنَّها غير مشاهدة للسامعين، فهي تتحدث عن الزمن الماضي، وتعد حجة على أهل الكتب السابقة. وكان الرسول الكريم ﷺ يتحدى اليهود والنصارى ويقول لهم: هذا القرآن هو من عند الله، وهو يصحح لكم ما بدّلتم وما حرّفتم في الكتب السماوية المنزّلة.

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٩.

(٢) ينظر: مقدمة المنتخب من تفسير القرآن: ١/٥، وأسلوب القرآن: ٥٣.

وأما تمزيقه لحاجز المكان في إخباره عن أدق أسرار النفس الإنسانية وما يعتمل في خباياها، وما تضمر في داخلها. فالقرآن الكريم لا يقول للمخاطبين: لقد هتكت حاجز الماضي، وأخبرتكم بأنباء الأولين ولا يقول لهم: سأهتك حاجز المكان وأخبركم بما يدور في بقعة قريبة لا ترونها، بل يقول: سأهتك حاجز النفس وأخبركم بما في أنفسكم، بما في داخل صدوركم... بما لم تهمس به شفاهكم، فهل هناك أكثر من هذا تحدياً... لحجاب المكان؟.. إنه تحدّ فوق قدرة كل الاختراعات البشرية التي وصل إليها العلم الآن[1] وجاء القرآن الكريم لأناس غير مؤمنين، وهتك حاجز النفس بالنسبة لهم فأخرج ما في صدورهم، وعرّاهم أمام الناس جميعاً وفضح كذبهم، ونشر على الدنيا كلها ما في صدورهم من كذب ورياء ونفاق أي: أهانهم أمام المجتمع كله[2].

وحاجز المستقبل: فقد أخبرنا القرآن الكريم في أدقّ تفاصيل عما يمكن أن يحدث في المستقبل من أحداث قريبة الوقوع، وأخرى بعيدة الوقوع. فقد أخبرنا القرآن عن غزوة بدر بأدقّ تفاصيلها، وعن انتصار المسلمين فيها وهم قلة على المشركين وهم كثرة. فيذكر القرآن الآيات المتعلّقة بهذا النصر حيث قال تعالى: ﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾[3].

وقد أشار القرآن أيضاً إلى حضور بعض الكفرة المعاندين حضورهم المعركة وأنهم سيقتلون وحدد مصارعهم وموقع الضربة أين ستكون. وهذا الوليد بن المغيرة يقول القرآن عنه: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ﴾[4] ويجرح أنفه يوم

---

(١) ينظر: المنتخب من تفسير القرآن: ١/١٠-١١، وأسلوب القرآن: ٥٤.

(٢) المنتخب من تفسير القرآن: ١/١٦-١٧.

(٣) سورة القمر، الآية: ٤٥.

(٤) سورة القلم، الآية: ١٦.

بدر ويبقى أثر الجرح فيه بقية عمره. من يستطيع من يحدد كل هذه الأشياء ويجزم ماذا سيحدث بعد ساعة واحدة أو أكثر؛ إنَّه هو الله الواحد الأحد عالم الغيب والشهادة[1].

ويرى الشيخ الشعراوي أنَّ للقرآن ثلاث مزايا امتاز بها على سائر الكتب المنزّلة وعلى سائر المعجزات، وهذه المزايا هي[2]:

أولاً: إنَّ معجزة القرآن معجزة عقلية باقية خالدة، لأنَّها معجزة للعالم وليست خاصة بأمَّة من الأمم أو جنس من الأجناس، فهي باقية ببقاء الحياة. أما معجزات الأنبياء الباقين فهي معجزات حسية مادية تنتهي بمجرد انتهاء عرضها. فمثلاً معجزات موسى عليه السلام كثيرة جداً أثبتت صدق موسى عليه السلام في دعوته، لأنَّ قومه برعوا في السحر، فجاءهم بأمر خارق للعادة، وهو (العصا) التي انقلبت حيّة، فهي تلقف ما يأفكون، والأمر أيضاً خارج عن نطاق السحر، فإذا به يفوقهم في جنس ما برعوا فيه وليس منه... من هنا خرَّ السحرة ساجدين، قال تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾[3].

إنَّها معجزة كونية حسيّة جاءت فأثبتت صدق موسى عليه السلام فيما جاء به، من رآها آمن بها، ومن لم يراها صارت عنده خبراً[4].

ثانياً: المعجزة القرآنية منهج ودستور، جاء القرآن كمعجزة لرسول الله ﷺ دالة على صدقه فيما جاء به من عند الله، فجاءت من جنس ما برع

---

(١) ينظر: المنتخب من تفسير القرآن: ١٠٨/٩، وأسلوب القرآن: ٥٦.

(٢) ينظر: المنتخب من تفسير القرآن: المقدمة.

(٣) سورة الشعراء، الآيات: ٤٦-٤٨.

(٤) ينظر: المنتخب من تفسير القرآن: ١٧/١، وأسلوب القرآن: ٥٦-٥٧.

فيه قومه الذي برعوا في صناعة الكلام، ولهذا نجد إنَّ المعجزة القرآنية هي نفس المنهج والدستور، فظلت محفوظة ببقاء المنهج، والمنهج قد تكفّل الله بحفظه فقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[1] أما بقية معجزات الأنبياء فإنَّها منفصلة عن المنهج، فمثلاً معجزة موسى عليه السلام هي العصا واليد، ومنهجه التوراة.

ثالثاً: فإنَّ معجزة النبي ﷺ صفة من صفات ربّ العزّة والجلال، وهي صفة الكلام، والصفة باقية ببقاء الموصوف، وهو عظيم الجاه. وبقية معجزات الأنبياء أفعال للمولى، وفعل المولى من الممكن أن ينتهي بعد أن يفعله المولى سبحانه، كالبحر الذي انشق لموسى عليه السلام ثم عاد إلى طبيعته الأولى، والنار التي لم تحرق الخليل عليه السلام لكنها عادت إلى خاصيتها من الإحراق بعد ذلك[2].

ويرى الشيخ الشعراوي -رحمه الله- أنَّ معجزة القرآن مستمرة حين نجده أجرى مقارنة بين معجزة القرآن، وبين المعجزات السابقة، وبيّن الفروق التي بينهما. ومن الفروق التي لاحظها:

١- المعجزات السابقة كونية خارقة لنواميس الكون ومظاهره بعكس القرآن.

٢- المعجزات السابقة أثرها موقوف خاص بمن شاهدها، بينما القرآن معجزته مستمرة، يؤثّر في الناس حتى قيام الساعة.

٣- المعجزات السابقة تعتبر من أفعال الله، وفعل الله من الممكن أن ينتهي بعد أن يفعله الله. أما القرآن فهو من صفات الله، لأنَّ القرآن كلام الله،

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٩.

(٢) ينظر: المنتخب من تفسير القرآن: ١١٢/١ و١٧٨/٣ و٢٤١/٩، وأسلوب القرآن: ٥٧-٥٨.

والكلام صفة ملازمة لله، وصفات الله لا تنتهي، لأنها باقية ببقاء الله. ولذلك القرآن معجزة مستمرة[1].

٤- القرآن به عطاء لكل جيل يختلف عن عطائه للجيل السابق.

٥- القرآن للعالمين جميعاً، وليس لقوم محدودين.

٦- القرآن يحوي الحقائق الأساسية في الكون كله.

٧- القرآن يعطي كل عقل ما يتفق مع مستواه وحجمه.

ويرى أيضاً أنَّ إعجاز القرآن مستمر ومتجدد، وأنَّ المستقبل يضيف أبعاداً جديدة لمعاني الآيات، وأنَّ الإنسان كلما تقدّم في العلوم والمعارف كلما أدرك الإعجاز القرآني بصورة أوضح. حيث يقول -رحمه الله-: «وفي القرآن إعجازٌ لا يتنبّه إليه العقل إلا بعد أن ينشط، ويكشف المستور عنه من حقائق الكون وأسراره... حينئذٍ يتبيّن أنَّ للقرآن وجوه إعجاز أخرى، أو جديدة، تزيد في معنى الإعجاز... أو تعطي أبعاداً جديدة لما يقال. بل إنَّ إعجاز القرآن موجودٌ أحياناً في حرف... حرفٌ من القرآن يحمل إعجازاً رهيباً. إنّ للقرآن عطاءً لكل جيلٍ يختلف عن عطائه للجيل السابق... ذلك أنَّ القرآن للعالمين... وإلا لو أفرغ القرآن عطاءه الإعجازي في قرنٍ من الزمان مثلاً، لاستقبل القرون الأولى بلا عطاء... وبذلك يكون قد جمد... والقرآن متجدّد لا يجمد أبداً»[2]. وأبرز ما يكون التجدد في الإعجاز وضوحاً، في الآيات القرآنية ذات المضامين العلمية والتي تتعلّق بحقائق الكون الأساسية[3].

---

(١) معجزة القرآن: ١٨-١٩.

(٢) معجزة القرآن: ٢١ باختصار، وينظر في: ٨٧-٨٨.

(٣) المنتخب من تفسير القرآن: ١٨/١، وينظر: البيان: ٣٠٧.

❑ الجانب التطبيقي لدى الشيخ الشعراوي:

نرى الشيخ الشعراوي يبرز لنا عدة جوانب تطبيقية لمظاهر الإعجاز القرآني حيث يطبقها على تفسير آيات الذكر الحكيم فيما يتعلق بصدق أخبار الله تعالى عن أحداث المستقبل القريب أو البعيد. حيث يقول تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1] ويتحقق فيما أخبره الله. وتمضي آيات القرآن تمعن في التحدي فتقول: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[2].

ما هذا؟ أيستطيع محمد ﷺ أن يتنبأ بنتيجة معركة ستحدث بين الروم والفرس بعد بضع سنين؟ هل يستطيع قائد عسكري مهما بلغت قوته وعبقريته ونبوغه أن يتنبأ بمصير معركة عسكرية بعد ساعة واحدة من قيامها؟ فما بالك أن ذلك يأتي ويقول: إنَّه بعد بضع سنين ستحدث معركة بين الفرس والروم وينتصر فيها الروم. إنَّ المتكلم هنا هو الله والفاعل هو الله، ومن هنا كان هذا الأمر الذي نزل في القرآن يقيناً سيحدث، لأنَّ قائله هو الله، وهو الذي يقول ما يفعل، ومن هنا حدثت الحرب وانتصر الروم على الفرس فعلاً كما أخبر الله تعالى[3]...

---

(١) سورة الروم، الآيات: ١-٥.

(٢) سورة الروم، الآية: ٦.

(٣) المنتخب من تفسير القرآن: ١/٢٠-٢١.

ويقول تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾[1] هذه الآية عن الكفار يوم القيامة، والهدف منها هو أن يقول الله ﷻ: إنَّ العذاب سيستمر في الآخرة، وكانوا يقولون: إنَّ مراكز الإحساس موجودة في المخ، وأن الجلد ليس فيه مراكز إحساس، كان هذا هو الحديث حتى فترة وجيزة، أما أثناء نزول القرآن فلم يكن أحد يعرف شيئاً عن ذلك على الإطلاق فيأتي الله تعالى فيقول: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ فكأن العذاب له صلة بالجلد، والإحساس بالعذاب يأتي من الجلد، ثم يكتشف العلم أخيراً أن مراكز الإحساس بالألم[2] موجودة فعلاً في الجلد، وهي التي تحسّ العذاب[3].

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[4] ومعنى النفخ أي: نفس، أي: أنَّ هناك نفساً خرج من النافخ إلى المنفوخ فيه فبدأت الحياة تدب فيه، ولذا تنتهي الحياة بخروج النفس فأنت إذا شككت في أنَّ أي إنسان قد فارق الحياة يكفي أن يقال لك: إنَّه لا يتنفس[5]، لتتأكد يقيناً أنه مات. إذ دخول الحياة إلى الجسد هو دخول هذا النفس مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ وخروجها هو خروج هذا النفس، فالمسألة يقيناً كما قال الله ﷻ.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥٦.

(٢) المنتخب من تفسير القرآن: ١/٣٠.

(٣) ينظر: أسلوب القرآن: ٦٣.

(٤) سورة الحجر، الآية: ٢٩.

(٥) المنتخب من تفسير القرآن: ١/٢٧-٢٨.

ويمكن أن نستخلص من دراسات الأقدمين والمحدثين بعض المقاييس فقد كان أبرزها:

١- ملاحظة أنَّ كل مقياس جمالي كان يشير إلى تأليه ويسلم إليه، فقد كان المقياس التالي: هو التلاؤم بين الألفاظ ومعانيها... وكان الرماني من أول الذين التفتوا إلى هذا الوجه فعدّه من مظاهر الإعجاز في القرآن، ثم تتابع العلماء من بعده، وعدّوه من أبرز المقاييس الجمالية في الأسلوب وهم بسبيل الحديث عن المعنى الكريم، وأنَّه من الواجب أن يلتمس اللفظ الكريم... فللمدح مثلاً ألفاظه الخاصة، ولا تستعمل في الهجاء... هكذا ومن ثم نقدوا الكلام الذي فقد هذا التلاؤم بين اللفظ ومعناه.

٢- الوحدة الفنية في أسلوب القرآن... التعبير في القرآن يتضمن الجمع بين فنون القول المختلفة والأغراض المتباينة في سوره بل في السورة الواحدة، وكان المثير للدهشة أنَّ هذا القرآن قد جاءت آياته وليس فيها شيء من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق، وليس فيها شيء من الانفصال في الخروج من طريق إلى طريق[1].

٣- إبداع النظم وإحكام التأليف.. وقد أوضحت الدراسات السابقة مدى اهتمام العلماء جميعاً بهذا النظم القرآني البالغ حد الإعجاز.. وقد كان التركيز فيما يتعلق بالنظم على عبد القاهر خاصة في هذا الميدان لما بذله ذلك العالم من الجهد حتى أبرز هذا النظم في مستوى المقاييس النقدية الأصلية والجامعة التي يقاس بها الجمال في العمل الأدبي.

---

(١) ينظر: النقد الأدبي: ٣/١٦٣-١٦٤.

٤- الإيجاز في اللفظ مع الوفاء بحق المعنى. وكان هذا المقياس الجمالي أيضاً من أهم الظواهر القرآنية التي لفتت أنظار العلماء، ومن ثم كان لتلك الظاهرة جانب كبير من الدراسات النقدية والبلاغية التي قامت حول القرآن وإعجازه، كما توالت الآثار الأدبية لتكون شاهد صدق لهذا اللون من التعبير وما له من جمال فني يتسم به كل عمل أدبي جميل.

٥- المقياس النفسي: وكان هذا المقياس هو النتيجة الطبيعية لكل ما سبق من مقاييس الجمال، أو هو بمثابة الهدف الأساسي الذي دارت حوله ومن أجله كل مقاييس الجمال في كل فن أدبي جميل.. ومن المعلوم أنَّ مقياس الجودة الأدبية هو مدى تأثير الصور البيانية في نفوس متذوقيها بما جمعت في إطارها من مظاهر الروعة والإبداع.

٦- حسن البيان وقوة الوضوح.. ولعل الاهتمام بهذا المقياس الجمالي كانت نتيجة مباشرة لتلك الوحدة الفنية التي التحمت فيها آيات القرآن وتماسكت صوره، فكان هذا البيان والوضوح رداً حاسماً على كل متوهم أن الصور، الجزئية في تعبير القرآن قد توارت واختفت معالمها في غمار هذا الترابط والالتحام.

❁ ❁ ❁